

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الأولى - العدد الأول - ربيع ١٣٩٠ ش / آذار ٢٠١١ م

الغزل الصوفي عند ابن الفارض وجامي؛

دراسة نقدية مقارنة في المضمون

محمد هادي مرادي*

فاطمة نصرالله**

الملخص

إن الأدب المقارن من أهم الفروع الأدبية لأنه يعالج الصلات التاريخية الموجودة بين أدبين مختلفين، موضحاً وجوه خلافهما وتشابههما. ويشترط في هذا الحقل النقدي أن تكون لغة موضوع الدراسة مختلفة. تتطرق هذه الدراسة المتواضعة إلى الغزل الصوفي للشاعرين الكبيرين ابن الفارض وجامي من حيث المضمون، على أنهما كانا من أعلام الشعراء الصوفية في الأدبين العربي والفارسي. فتلقى الضوء على حياة الشاعرين، ثم تنطلق نحو دراسة مضامينهما الشعرية على أساس أهم مظاهر الشعر الصوفي كالخمر والمرأة اللتين يوظفهما الشاعر لبيان المفاهيم العرفانية.

الكلمات الدلالية: ابن الفارض، جامي، الغزل الصوفي، الحب، الخمر، المرأة.

※ أستاذ مساعد بجامعة العلامة الطباطبائي.

※ خريجة جامعة آزاد الإسلامية في كرج.

hadimoradi29@gmail.com

تاريخ القبول: ١٣٩٠/٣/٢١ هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٢/٢٥ هـ. ش

المقدمة

إن التصوف ظاهرة دينية قوية بدأت حوالى القرن التاسع الهجرى، وانتشرت منذ ذاك الزمن فى الممالك الإسلامية، وهى نزعة ذات الفرق الكثيرة فى كل أنحاء العالم الإسلامى، وجذبت الكثيرين من الشعراء. أما اللذان يشار إليهما فى هذا البحث فهو ابن الفارض المصرى الذى مشهور بأشعاره الصوفية الجزيلة، وجامى الذى هو من أشهر شعراء الفرس الصوفية. وقامت الدراسة بالمقارنة بين غزلهما الصوفى مضمونا.

حياة ابن الفارض

هو عمر بن على بن المرشد بن على شرف الدين أبوحفص الحموى الأصل، ولد بالقاهرة فى الرابع من ذى القعدة سنة ٥٧٦ق، قدم أبوه من حماة فى بلاد الشام إلى مصر فأقام فيها، وكان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحكام ولقب بالفارض، وهناك رزق بولده عمر، لذلك سمي بالفارض. (ابن غالب، لاتا: ٣)

يبدو شعر ابن الفارض من الوجهة الفنية نموذجا صادقا للتعبير الشعرى المنبثق عن تجربة ذاتية أصلية، وذلك لأن أحواله ومنازلاته ومواجهه الروحية هى التى كانت تحرك فيه القوافى والأوزان، فتجعله ينشط للشعر، إذ يصف به أحواله عن ذوق فردى أصيل لا عن تقليد أو محاكاة. (جودة نصر، لاتا: ٣٠٥)

وكانت وفاة سلطان العاشقين شرف الدين عمر ابن الفارض فى العام الثانى والثلاثين بعد المائة السادسة للهجرة، ودفن فى سفح جبل المقطم فى مكان يدعى اليوم قرافة ابن الفارض. ومازال قبره حتى الساعة مزارا يزدحم بأفواج المؤمنين. (ابن الفارض، ٢٠٠٥م:

(١٥)

حياة جامى

ولد جامى فى خرجرد فى مدينة جام، وقت العشاء الثالث والعشرين من شعبان المعظم سنة سبع عشرة وثمانمئة. كان لقبه الأصلى عمادالدين، ولقبه الذى اشتهر به

نورالدين، واسمه عبدالرحمن. (لارى، ١٣٤٣ش: ٣٩)

وبما أن مولده كان في جام، وفيها مرقد شيخ الإسلام احمد جامي اختار لنفسه جامي. (جامي، ١٣٨٣ش: ١٦)

كان من كمالات أستاذ جام، ذوقه الشعري وهو كان مشهورا بهذا الفن في عصره ومعروفا بالبراعة عند أكثر المتكلمين في اللغة الفارسية في إيران وتركستان والهند، ولقب بخاتم الشعراء لأنه انقضى بوفاته نظم الشعر بأسلوب الشعراء القدامى الذي كان معروفا في خراسان وفارس والعراق، وبعد وفاته حتى القرن الثالث عشر لم يطلع نجم مشرق من تلك النجوم القديمة في أفق الأدب الفارسي. (حكمت، ١٣٨٦ش: ١١١)

عاش جامي إحدى وثمانين سنة، وفي صباح يوم الجمعة وفي الثامن عشر من محرم الحرام، ظهرت آثار الرحيل من مقام الفناء إلى دار القرار، وتوفى سنة ثمان وثمانمائة ودفن في هرات. (لارى، ١٣٤٣ش: ٤٤)

أشعار ابن الفارض و جامي في المضمون

مع أن الشكل قسم هام لكل أثر أدبي، تنطرق في هذه العجالة إلى مضامين الشعارين الشعرية، لأنّ الشعر أو النثر لا يخلق إلا بسبب مضمونه، ولكل مضمون فكرة خلقتة. وبهذه الصورة مع خلق الآثار الأدبية المتعددة تنتشر الأفكار في العالم وتؤثر على الحياة البشرية. لكل نوع من الشعر مظهر، ومظاهر الشعر الصوفي هي التي تساعدنا على فهم أشعار ابن الفارض وجامي. الخمر مظهر من المظاهر التي انصرف إليها ابن الفارض في أشعاره بشكل واسع، وإدراك معناها يفتح بابا من المعاني أمام القارئ.

الخمر في شعر ابن الفارض

الخمر موضوع هام في شعر شعراء الصوفية، ومع السير في ديوان ابن الفارض تبدو أهميته في أشعاره بحيث أنه اختصّ قصيدة كاملة لبيان هذا الموضوع مع أن أكثر الشعراء يستخدمونها خلال أشعارهم بشكل شتى.

القصيدة الخمرية هي أهم القصائد في ديوان ابن الفارض بعد تائيته الكبرى. يقوم الشاعر في هذه القصيدة بوصف الخمرة وصفاً عميقاً، كى يبلغ غاية غير مادية، ويجبر القارئ على العبور من ظاهرها إلى باطنها. في ظاهر القصيدة يبدو أن ابن الفارض وصف الخمر، ولكن لكونه شاعراً صوفياً فإن لكل ألفاظه مفهومين، فللخمر في نظريته معنى آخر. في بداية القصيدة يأتي الشاعر بذكر حبيب هو مبدأ كل شيء في الحقيقة، ومبناه؛ وقصة هذه المدامة التي يصفها حتى نهاية القصيدة ترجع إلى هذا الحبيب، وهو الغاية النهائية في الأصل:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها، قبل أن يخلق الكرم

(ابن الفارض، ٢٠٠٥م: ١٧٩)

هذا هو الحبيب الذي كان حبه في قلب الشاعر قبل خلق العالم فهو حبّ عريق. ثم يبدأ بوصف الخمر، إذ يختص قسم كبير من القصيدة بها. بدقة النظر في هذه الأوصاف يبدو كأن الصفات المذكورة لشيء أعلى من الخمرة المادية، والخمر في الحقيقة تمثل غيرها، وهي يمكن أن تكون رمزا للحبّ، رمز حبّ أصيل لحبيب أزلّي. وهو يصف الخمر كمفتاح كل قفل ودواء كل داء، ويقول:

وإن خطرت يوماً على خاطر امرىء أقامت به الأفراح، وارتحل همّ
ولو نظر الندمان ختم إنائها، لأسكرهم من دونها ذلك الختم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت لعادت إليه الرّوح، وانتعش الجسم

(المصدر نفسه: ١٨٠)

أجل، إن ابن الفارض، يُظهر الخمر بأنها تشفى كل مرض وتحلّ كل مشكلة إذ يقول:

ولو طرّحوا، في فيء حائط كرمها عليلاً، وقد أشفى لفارقهُ السقمُ
ولو جُليت، سرّاً على أكمه غدا بصيراً، و من راووقها تسمع الصمّ

(المصدر نفسه: ١٨٠ و ١٨١)

وأنّه يصلح مفسد الأمور الباطنية والأخلاقية كما يصلح الأمور الظاهرية:

تُهدب أخلاق الندامى، فيهدى
ويكرُم من لم يعرف الجودَ كَفَّهُ
بها لطريق العزم، من لا له عزم
ويحكُم، عند الغيظ، من لا له حلم

(المصدر نفسه: ١٨٢)

هذه الخمرة بهذه الصفات الفاضلة والمؤثرة على المخلوقات ليست إلا الحبّ الإلهي، (جودة نصر، ١٩٨٣م: ٣٦٣) الذي يشفى كل مريض ويحيى كل الموتى ويفتح كل الأبواب المغلقة ويبعث الفرح والبهجة ويذيب كل همّ وغمّ، حينما تنتشر رائحته في العالم دون أن يدرك من جانب الخلائق بصورة كاملة. هذا هو الحب الذي سكر به الشاعر ولا يقطع صلته به أبدا. أما في قسم آخر من القصيدة فهو يقول:

يقولون لى : صفها، فأنت بوصفها خبيرٌ، أجل، عندى بأوصافها علم

(ابن الفارض، ٢٠٠٥م: ١٨٢)

وبعد الفراغ من هذه الأوصاف يبين معرفته للخمر أو حب المحبوب كأنه بين الناس معروف بهذه المعرفة وهم يطلبون منه وصف حبه العريق للمحبوب الحقيقي وهو كذلك يصدق هذه الإدعاء، قائلا:

صفاءً ولا ماءً، ولطفٌ ولا هواءً
ونورٌ ولا ناراً، وروحٌ ولا جسم

(المصدر نفسه: ١٨٢)

وكأنه محرم لأسرار المحبوب، يحصى ميزات الخمر (الحب الإلهي)، ويقول بأن لهذا الحبّ صفات ليس لها مثيل، وهو مطهر خال من التلوّث المادّي وفي الحقيقة أعلى مما يبادر إلى الذهن. ثم ينصرف إلى تبيينه وما أدركه منه عن أعماق قلبه ويتكلم عن قدمه، بأنه كان موجودا قبل أن يوجد ما في العالم:

تقدّم كلّ الكائنات حديثها
قديماً، ولا شكلاً هناك، ولا رسم

(المصدر نفسه: ١٨٢)

وخلق كل شيء على حسب محبة الله وفهمها لا يمكن إلا بواسطة العقلاء، والذي حرم عن هذه النعمة محروم عن إدراكها:

وقامت بها الأشياء ثم، لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهم

(المصدر نفسه: ١٨٢)

ثم ينصرف الشاعر إلى البحوث الحكمية في الحبّ وفيها ظرائف عديدة، مثلاً:

ولا قلبها قبل، ولا بعدَ بعدها، وقبلية الأبعاد، فهي لها حتم

(المصدر نفسه: ١٨٣)

يذكر البيت القارى، هذه الآية الشريفة: ﴿هو الأول والآخِر والظاهر والباطن﴾

(الحديد: ٣) بمعنى أنّ الله تعالى وجهه كان الأول قبل وجود كل شيء، ويكون الآخر

بعد إيجاد كل شيء، ولا يسبق عليه شيء ولا يلحق به شيء وكل شيء منه، وهذا بحث

عميق في الحكمة يطلب مجالاً واسعاً، ثم يقوم الشاعر بالتعبير عن نفسه أمام الحب

ويقول:

وقالوا: شربت الإثم! كلاً وإنما شربتُ التي، فى تركها عندى الإثم

(ابن الفارض، ٢٠٠٥م: ١٨٤)

يتهمه العوام بالإثم، لأنّه غريق فى بحر حب الله، ولكنه لا يقبل كلامهم بل يعتقد

بأن البعد عن هذا البحر العظيم هو الإثم والعصيان أمام المعبود. وهو يتكلم عن الفرح

والنشاط الذى يحصل من قرابته عن المحبوب، وهو الذى ذاق طعم غرامه قبل أن تتطأ

قدماه عالم الطبيعة:

وعندى منها نشوة، قبل نشأتى ومعى أبداً تبقى، و إن بلى العظم

(المصدر نفسه: ١٨٤)

وكان طعم الحب عنده حلو بحيث لا ينساه حتى يموت ويبلى عظمه أى حتى لو لم

يبق له أثر. نعم، حب الإله أطيب لذة عند الشاعر ولهذا يوصى الآخرين بكسبه خالصاً

لوجه الله، لأنّه نبض حياة الكائنات. وفى النهاية يقول فى ختام كلامه: إن الحياة دون

الحبّ الحقيقى هى الموت، ومن لا يدركه طوال عمره فهو الميت:

فلا عيش فى الدنيا لمن عاش صاحيا ومن لم يمت سكرًا بها فاته الحزم

على نفسه، فليبيك من ضاع عمره وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمٌ

(المصدر نفسه: ١٨٥)

فحبّ الله رمز عظيم في حياة ابن الفارض، وهو الذي عبر عنه بالخمّر، بسبب أنّ الخمر تسكر الإنسان، وتضعف عقله وتفصله عن الدنيا، فالحب الإلهي مثل ذلك ولكن في درجات عالية وليس فيه ضرر بل كله حُسن، لأنّ الإنسان لما يسكر من حب الله ينفصل عن عالم المادة ولا يرى إلا الله تعالى.

الخمّر في شعر جامي

ورد ذكر الخمر في أشعار جامي قليلا، بالإضافة إلى أن إشارات في بعض أبياته إلى الخمر ليست وصفا لها أو تعبيرا لما يرتبط بالخمر، بل هو وسيلة لبيان موضوع آخر؛ فعلى سبيل المثال في إحدى أوصافه للربيع يأتي بذكر الخمر ويقول:

ساقى بيار می که گل از غنچه رو نمود

چون بگذرد بهار وپشیمان شوی چه سود

(جامي، ١٣٤١ش: ٤٠٨)

وفي موضع آخر في وصف العشاق يذكر الخمر قائلا:

ساقيا صاف می عیش به خود کامان ده دُردي درد به خون جگر آشامان ده

(المصدر نفسه: ٦٧٩)

وفي أكثر الأبيات التي جاءت بذكر الخمر الموضوع الرئيسي هو الحبيب وصفاته، مثلا في وصف شفتي الحبيب، يقوم بذكر أوصاف جميلة يستمدّها من الخمر ويقول:

ساقی زجام لعل تو یک نکته گفت دوش در حلق شیشه شد می چون ارغوان گره
وأيضا يقول:

جام می است لعل تو لیکن به جرعه ای زان جام یاد باده گساران نمی کنی

(المصدر نفسه: ٧٥١)

وفي أبيات شتى لما يخاطب حبيبه ويحصى حسناته يدخل الخمر في كلامه ويقول:

هر که از میکده عشق تو بویی شنود تازید مست زید چون برود مست رود

وان کزین میکده بویی به مشامش نرسد این قدر دولت او بس که به این می گروید
(المصدر نفسه: ۴۰۸)

وأيضا يقول:

هر قدح کز می تو کردم نوش آفت عقل بود وغارت هوش
شد به دور لب می آلودت پیر مرشد مرید باده فروش
(المصدر نفسه: ۹۶ و ۱۰۸)

وفى مكان آخر يأتى بذكر محبوبه، كأنه يدير الخمر فى المجلس ويقول:

بیا ای ساقی گلرخ می گلرنگ گردان کن
بروی گل گل از می مجلس ما را گلستان کن

(المصدر نفسه: ۶۲۲)

بدقة النظر فى هذه الأبيات، يبدو أنّ جامى استخدم الخمر والحانوت والكأس فى أشعاره، لبيان حقيقة واحدة وهى محبوبه الذى هو خالق كل شىء، والشاعر يقوم بواسطة الخمر بالتعبير عن حسناته الظاهرية والباطنية، وحبه العميق لمعشوقه الأزلى. هذه التعابير توجد فى أشعار الصوفيين عادة، وجامى شاعر بارع فى بيان هذه الأوصاف، وله فى باب الخمر أشعار جميلة، جاءت فى ما سبق ومنها قصيدة طويلة اختص الشاعر قسما منها بموضوع الخمر، ويفهم منه نوعٌ من السفر فى سبيل الوصول إلى المحبوب، يقول فيها:

صبحدم باده شبانه زديم ساغر عيش جاودانه زديم
مست ويخود زكنج كاشانه نقب سوى شرابخانه زديم
وز حريم شرابخانه علم بر سر كوى آن يگانه زديم
بهر يك جرعه مى زساغر او سر خدمت بر آستانه زديم
ساغر از دور عارضش كرديم باده خورديم واين ترانه زديم
كه مى عشق را تويى ساقى كأسه شمس وجهك الباقي

(المصدر نفسه: ۱۰۰)

وكانَّ الشاعر يحكى فى هذا الشعر قصة حبّه للمحبوب، والخمر فيها وسيلة الوصل والخمارة مكانة الوصل بين المحبِّ والحبيب، وكأنه المعبد الذى يعبد العاشق فيه المعشوق.

والأشعار التى سبق ذكرها، كانت فى موضوع الخمر بصورة مشتتة، ولكن ما بقى عن جامي فى هذا الموضوع وهو الأهم، شرحه للقصيدة الخمرية لابن الفارض، نظم جامي كل مضامين أبيات الخمرية علاوة على شرحها فى هذا الأثر، أى كأنه نظم قصيدة مستقلة فى الخمر بمدد الخمرية الفارضية، ومطلعها:

ماييم زجام عشق تو جرعه كشان بر جرعه كشان خود گذر جرعه فشان
بر ياد تو آن صبح صبوحى زده ايم كز تاك نشان نبود واز تاك نشان

(جامي، لاتا: ١٣١)

شرح جامي الخمرية شرحا عرفانيا ونظم بدلا من أى بيت للخمرية بيتين والمضمون واحد وهو شرح قوى للخمرية، بقى عن جامي حتى الآن.

المقارنة بين الشاعرين فى أشعارهما الخمرية

بالمقارنة بين ابن الفارض وجامي فى أشعارهما الخمرية، يبدو أن انصراف ابن الفارض إلى موضوع الخمر وبراعته فيها أكثر من جامي ومضامينه الشعرية فى هذا الباب أقوى من مضامين جامي الشعرية، والأثر الذى تركته خمرية ابن الفارض على جامي وجعلته يشرحها، نفسه مصدق لهذا الكلام. ولكن ما بهم فى شعر هذين الشاعرين هو أن الخمر فى شعرهما مظهر من مظاهر الحبِّ الإلهي الذى هو أهم اللوازم للحركة فى طريق وصل المحبوب بحيث الشاعر وهو المسافر فى الطريق إلى الله لا يستطيع أن يغمض عينه عنه، ودونه يصعب الوصول أم كأنه لا يمكن أصلا. وكما أن الخمر تضيع العقل ويحرر الإنسان عن إدراك كل شىء، الحبِّ يفصل المرء عن الدنيا - وهو الحبِّ الحقيقى - ويلفت نظره إلى أحد دون الآخرين وهو مركز الحياة وخالق الأرض والسماء.

المرأة في شعر ابن الفارض

المرأة هي التي خلقها الله وراء الرجل كي يسكن في ضوئها بالهدوء والاطمئنان، ولها صفات تجمع بها أفراد الأسرة وتحبب فيهم حرارة الحياة، وبسبب هذه الصفات ومنها الحنان والمحبة والإينار أعطى الله لها مكان الأمومة لبقاء البشر. قصة حبّ الرجل للمرأة جرت طوال التاريخ كرارا، والأدباء نقلوها في قوالب متعددة، وأهمية هذه القصة واضحة من تكرارها. كان هذا الحبّ من بداية ظهوره ماديا بين جنس الرجل وجنس المرأة، بعد ذلك مع ارتقاء فكرة البشر وثقافته، ارتقى حبه شيئا فشيئا، وهذا باب جديد لإدراك الحبّ الحقيقي. أمّا ابن الفارض والمعروف باشتغاله بالحب الحقيقي عن كذب أيضا، فهو كان في بداية طريقه عاشقا للمعشوق المجازي. من خلال دراسة أشعار ابن الفارض يمكن أن تنقسم هذه الأشعار إلى الأقسام المختلفة من جهة انصرافه إلى موضوع الحبّ، على سبيل المثال قام الشاعر في بعض الأحيان باستخدام اسم المرأة مباشرة في شعره، وبعده بتوضيح قصة حبه، هذا الموضوع جاء في قصيدته اللامية حيث يقول:

وماذا عسى عني يقال سوى غدا
وقال نساء الحى عنا بذكر من
إذا أنعمت نعم على بنظرة
فلا أسعدت سعدى ولا أجملت جمل
بنعم له شغل نعم لى بها شغل
جفاناً وبعد العز لذل الدل

(ابن الفارض، ٢٠٠٥م: ١٦٥)

بعد ذلك يقوم الشاعر بتبيين حبه لها قائلاً:

وقد صدت عيني برؤية غيرها
وقد علموا أنى قتيل لحاظها
حديثى قديم فى هواها وماله
- كما علمت - بعد وليس له قبل
ولثم جفونى تربها للصدا يجلو
فإن لها فى كل جارحة نصل

(المصدر نفسه: ١٦٦)

وكذلك يواصل الوصف حتى نهاية القصيدة.

وفى مكان آخر يكرّر الموضوع فى قصيدته اليبائية إذ يقول:

سائلى ما شفتنى فى سائل الد
دمع لو شئت غنى عن شفتى

عُتِبُ لَمْ تُعْتَبِ وَسَلِمِي أَسَلَمْتُ وَحَمِي أَهْلَ الْحَمِي رُؤْيَةَ رَى
وَاجِدًا مِنْذُ جَفَا بَرُقْعَهَا نَاظِرِي مِنْ قَلْبِهِ فِي الْقَلْبِ كَى

(المصدر نفسه: ٢١٥)

هذا نوع من شعره الذي استعمل اسم المعشوقه فيه بصورة مباشرة، وأمّا نوعه الآخر فهو شعر ليس فيه اسم المرأة، ولكن الشاعر خاطب شخصا مؤنثا في كلامه لأنّ ضمائر المخاطب فيها كلها جاءت للمؤنث، هذا النوع من الشعر ليس بكثير بين قصائد ابن الفارض ومنه ما قاله الشاعر في قصيدته اليبائية:

قَلْتُ رُوحِي إِنْ تَرَى بِسَطْكِ فِي قَبْضِهَا عَشْتُ فَرَأَيْتُ أَنْ تَرَى
أَيَّ تَعْذِيبِ سِوَى الْبُعْدِ لَنَا مِنْكَ عَذْبٌ حَبِذَا مَا بَعْدَ أَيَّ
مَا رَأَتْ مِثْلَكَ عَيْنِي حَسَنًا وَكَمِثْلِي بِكَ صَبًّا لَمْ تَرَى

(المصدر نفسه: ٢١١)

ومنه ما نظم في تائيته الصغرى حين يقول:

وَمَا غَدَرْتُ فِي الْحَبِّ أَنْ هَدَرْتُ دَمِي بِشَرِّعِ الْهُوَى، لَكِنْ وَفَّتْ إِذْ تَوَقَّتْ
مَتَى أَوْعَدْتَ أَوْلَتَ، وَإِنْ وَعَدْتَ لَوْتَ وَإِنْ أَقْسَمْتَ: لِأَثْبْرِءِ الْقَسَمِ، بَرَّتْ
وَإِنْ عَرَضْتَ أَطْرَقَ حَيَاءٌ وَهَيْبَةٌ، وَإِنْ أَعْرَضْتَ أَشْفِقُ، فَلَمْ أَتَلَقَّتْ

(المصدر نفسه: ٨٥)

حين يقرأ القارئ هذه الأشعار، يظنّ أنّ المخاطب بالتأكيد مؤنث، ولكن في كثير من أشعاره لا يوجر أثر من الأنثى أصلا، وكل الخطابات للمذكر مع أنّ رواية حبّ العاشق للمعشوق في هذه الأشعار مُحْرِقَةٌ وَمَوْلَمَةٌ جَدًّا، هذا النوع من الأشعار كثير في ديوان ابن الفارض ومنه ما قاله في قصيدته الذالية:

صَدُّ حُمِي ظَمَائِي لِمَاذَا، وَهَوَاكِ، قَلْبِي صَارَ مِنْهُ جَذَاذَا
إِنْ كَانَ فِي تَلْفِي رِضَاكِ، وَلَكِ الْبَقَاءِ، وَجَدْتُ فِيهِ لَذَاذَا
كَبْدِي، سَلَبْتُ صَحِيحَةً، فَاْمُنُّنْ عَلَيَّ رَمَقِي بِهَا، مَمْنُونَةً أَفَلَاذَا

(المصدر نفسه: ١١٦)

وفي بعض الأحيان استخدم الشاعر ضمائر الجمع وهذا مثلما قال في القصيدة الفائية:

يا أهل وُدِّي! أنتم أُملى، ومَن	نادَاكم يا أهل وُدِّي، قد كُفي
عودو لما كُنْتُم عليه من الوفاء	كَرَمًا، فَإِنِّي ذَلِك الخَلّ الوفي
وحياتُكم وحياتُكم، قسماً وفي	عمرى، بغير حياتِكم، لم أحلف
لو أنّ رُوحى فى يدي، ووهبتُما	لُمبَشِّرَى بِقُدومكم، لم أنصِف

(المصدر نفسه: ١٤٤)

هذه أنواع الخطابات فى شعر ابن الفارض، ويمكن أن يكون لكلّ منها تفاسير، على سبيل المثال فى المكان الذى جاء باسم المرأة أو ضمير المؤنث فى كلامه، يمكن أن يكون فى ذهن الشاعر شخص مؤنث فى الحقيقة، أى يمكن أن نقول إن للشاعر فى البداية معشوقاً مجازياً حتى فترة معينة، ولكن بعد مضي زمن رأى الشاعر من جانب معشوقته مرارات كثيرة، وقساوات عديدة ثم يئس منها، وأعرض عنها، ولكن بسبب العناء الذى عاناه وفشله فى غرامه طوال مدة طويلة، تتعالى روحه وتنجذب إلى حبيب أعلى من حبيبته المادية، وحبّه يملأ قلبه وهذا الحبّ مطهر ومعظم، ثم يهتدى إلى سبيل الرشد ويفنى حياته فى حبه الإلهى حتى نهايتها. ولكن يمكن أن يكون قصد الشاعر من إتيانه بالاسم أو ضمير المؤنث شىء آخر، وكذلك ضمير المذكر يمكن أن يكون رمزاً للشخص المعين الذى لا يريد الشاعر إظهاره. وضمائر الجمع للمذكر من الممكن أن يكون القصد منها أصدقاءه الذين يشتركون معه فى غاية واحدة وهم رفاقه فى الطريق إلى الله، أم يمكن أن يكون له معنى آخر وهو يخاطب أهل قبيلته أو قبيلة معشوقه. ومن الممكن أن يكون لكلّ هذه الرموز معنى واحد، وهو غايته النهائية وهى محبوه الحقيقى وهو الله تعالى. هذه التفاسير موجودة لأشعار ابن الفارض، والآراء مختلفة فيها، ولكن الدقة فى أفكار الشاعر طوال حياته تعين القارىء فى الفهم الصحيح لأشعار ابن الفارض.

المرأة في شعر جامي

نظم جامي أناشيده الغرامية والمحركة بحيث أن القارئ يظن أن له حبيبة مجازية عزيزة، يحترق الشاعر في حبها هكذا، لأنه يستعمل تعابير جميلة لبيان حبه، وأوصافه لطيفة جداً بحيث يحتاج القارئ لقراءة أشعاره إلى زمن طويل، مع أن جامي لا يستخدم اسماً خاصاً للمرأة في غزله، ولكنه في بعض الأحيان يقلد الشعراء العرب، ويأتي بيت في مطلع غزله فيه اسم المرأة وهذا مثلما قال:

خَلِيلِي لَأَحْت لَنَا دَوْرَ سَلْمَى نَشَانِ هَايِ سَلْمَى شَدَّازِ دَوْرِ بِيْدَا
وَأَيْضَا:

أَحْنَّ شَوْقاً إِلَى دِيَارِ لَقَيْتِ فِيهَا جَمَالَ سَلْمَى

که میرساند از آن نواحی نوید لطفی به جانب ما

وَأَيْضَا:

نَائِتِ سَلْمَى وَلَكِنْ لَاحِ بَرْقِ مِنْ مَغَانِيهَا بَلِي مَنْزَلِكِ مَعْشُوقِ رَا بَاشَدِ نَشَانِيهَا
(جامي، ١٣٤١ش: ١٣٣)

لا يبدو أن يكون للشاعر قصد من هذه الأشعار بل أنه أراد أن يستخدم ما شهر بين العرب في غزلهم وهي اسم سلمى.

والشاعر في بعض أشعاره يأتي بأوصاف جسدية للمحبوب، كأنه يصف معشوقه مجازية وهذه الأشعار كثيرة عند جامي ومما يقوله في ذلك:

أَي تَرَا قَدْ خُوبَ وَابْرُو خُوبَ وَزَلْفَ وَجْهَرِهْ خُوبَ
بِرِ زَبَانِ أَهْلِ دَلِّ نَامِ تَوِ مَحْبُوبِ الْقُلُوبِ

بَا لِبِ نَوْشِينِ تَوِ زِدْ لَافِ شِيرِينِي نَبَاتِ

مصريان از شهر کردند بیرونش به چوب

وَأَيْضَا:

به رخسار وجبین وروی و عارض بردی ای دلبر

فروغ از صبح و نور از روز و عکس از ماه و تاب از خور

به عارض گل به مو سنبل به بر نسرین به تن سیمین

به قد طوبا به رخ جنت به خط توتی به لب شکر

(المصدر نفسه: ١٤٢)

وهو في أشعاره الأخرى لا يأتي باسم أو وصف للمعشوق بل يعبر عن حاله:

ساقيا زين هنر وفضل ملوليم ملول

ساغری ده که به شوییم زدل نقش فضول

مشکل عشق چو حل می نشود چند نهیم

گوش ادراک برافسانه اوهام وعقول

(المصدر نفسه: ٥٠٠)

وأيضا:

نفس از درون و دیو ز بیرون زند رهم از مکر این دو ره زن یرحیله چون رهم

دارم جهان جهان گنه ای شرم روی من چون روی از این جهان به جهان دگر نهیم

(المصدر نفسه: ٥٢١)

وبإمعان النظر في أشعار جامي يبدو لنا أنها امتلأت بذكر الأوصاف العديدة للمحبوب،

وشكائياته عن الفراق وحكايات شوقه لوصله والتوصيفات التي تلطف الروح حقًا، ولكن

هل الشاعر كان له معشوق مجازي أم لا؟ سؤال لا يمكن للإنسان أن يبدى فيه رأيا قاطعا.

ولكن بالتأكيد لكل ظاهر باطن في أشعار جامي، لأنه كان شاعرا غاص الأعماق.

المقارنة بين الشعارين في استخدام الأنثى في شعرهما

من الواضح أن الأثر الأنثوي مشهود في أشعار الشعارين ابن الفارض وجامي لأنهما

يذكران اسما أو يستعملان ضمائر وأوصافا، تدل على وجود الشخص المؤنث والمعشوقة

المجازية، ومن الممكن أن يكون هذا التفسير صحيحا لأن الله تعالى فطر الناس على

الصفات والغرائز ومن أقوى هذه الغرائز الحب. والحب من البداية يتجلى في القلب

البشري ويذوق المرء طعمه بصورة مادية، مع أن كثيرين من الناس يبقون في هذا القلب

المادّي ولا يصلون إلى الغاية الأصلية ولكن الذين هم أهل الطموح ولهم أرواح مطهرة، يمرّون من المرحلة المادية بسرعة متوجهين إلى مالک الحب الحقيقي، وهو الحضرة الإلهية و هم قليلون جدا لأنّ الطريق خطيرٌ والوصول صعب جدا.

ابن الفارض وجامي هما اللذان جعلوا القدم في هذا الطريق، وجهود في طيها، هما عاشا لا ابتغاء مرضاة الله، وأفنيا حياتهما لها. وشعرهما الذي نتج عن فكرتهما فيه مظاهر تبدى نزعتهما الإلهية، من هذه المظاهر المرأة كانت لها تفاسير في شعرهما، ولكن بسبب أن الشعارين من الشعراء الصوفيين وأنّ حياتهما كانت حياة زهدية، ومضامين أشعارهما تؤكد هذا الموضوع، لا يمكن أن نفهم من ذكر المرأة في شعرهما مفهوما مجازيا، بل أنّهما استخدما هذا الموضوع على أنّها مظهر الجمال الإلهي، والله تعالى لما قصد أن يصوّر جماله في العالم خلق المرأة، وعند الصوفيين حولها أحاديث كثيرة، فيجب أن يفسر تفسيراً باطنياً دون ظاهره. ومن جهة أخرى يجب أن يكون لكل شيء معنى مظهر مادي وملموس للمخاطب، حتى يقدر أن يفهمه وهذا منهج القرآن، لما يريد أن يصف الجنة والنار يأتي بما يراه الناس في هذا العالم من الأشجار والأنهار والفواكه أو الحديد المنصهر والماء الحميم ومثل ذلك.

وقصة الحب هكذا حين يريد الشاعر أن يصف جريان حبه، يجب أن يأتي بمصاديق قابلة للفهم، لهذا يستخدم قصة الحب المادّي كي يوصل معنى الحب المعنوي إلى ذهن القارئ، فهذه الأسباب تدفع شعراء الصوفية كي يستخدموا الأنتى في شعرهم.

النتيجة

الغزل الصوفي شعر يمتاز بالمضامين الصوفية العالية، والشاعر الذي ينظم هذا الغزل يجهد في تطهير روحه من القاذورات الدنيوية حتى يقرر صلته بعالم المعنى. والمظاهر المستخدمة في هذا النوع من الغزل كالخمر والمرأة، رموز لبيان حالات الشاعر المعنوية والروحية، وهو بسبب أن الشاعر معذور عن وصف علاقته مع الحضرة الإلهية مباشرة فيلجأ لبيان أحاسيسه إلى الرمز. ابن الفارض وجامي شاعران من الشعراء الصوفية وهما

استخدما هذان الرمزان وقصدا منهما الحب الإلهي الذي يدور حوله أكثر أشعارهما الصوفية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الفارض، عمر. ٢٠٠٥م. *الديوان*. تحقيق مهدي محمد ناصرالدين. بيروت: دار الكتب العمية.
ابن غالب، رشيد. لا تا. شرح ديوان ابن الفارض للشيخين حسن البوريني وعبدالغني النابلسي. بيروت: دار التراث.

جودة نصر، عاطف. لا تا. شعر عمر ابن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي. بيروت: دار الأندلس.
جودة نصر، عاطف. ١٩٨٣م. *الرمز الشعري عند الصوفية*. لبنان: دار الأندلس.

جامي، عبدالرحمن. ١٣٤١ش. *ديوان*. باهتمام هاشم رضی. تهران: انتشارات پیروز.
جامي، عبدالرحمن. ١٣٨٣ش. *رساله منشآت نورالدين عبدالرحمن جامي*. مصحح عبدالعلي نور احرازي. تهران: شيخ الإسلام أحمد جام.

جامي، عبدالرحمن. لا تا. *لوامع ولوايح في شرح قصيده ابن فارض وفي بيان المعارف والمعاني العرفانية*. مقدمة ايرج افشار. تهران: كتابخانه منوچهری.

حكمت، علي اصغر. ١٣٨٦ش. *جامي (متضمن تحقیقات در تاريخ احوال و آثار منظوم و منثور خاتم الشعراء نورالدين عبدالرحمن جامي)*. تهران: انتشارات توس.

لاری، رضی الدين عبدالغفور. ١٣٤٣ش. *تكملة حواشي نفحات الأنس (شرح حال مولانا جامي)*. تصحيح بشير هروی. تهران: انتشارات انجمن جامي.